نزيف الماضي

عبد الرحمن احمد

الماضي.. الحاضر.. المستقبل

الكثير منا يعتقد بأن تلك الكلمات غير متشـــابهة.. الكثير منا يعتقد بأن هناك فرق بين تلك الكلمات... الحقيقة قد تكون صـــادمة للبعض، حيث أن تلك الكلمات متطابقة.

الحدث يحدث في الماضي ويترتب عليه الحاضر، والحدث يحدث في الحاضر الذي نتج من الماضي فيترتب عليه المســتقبل. تلك هي سنة الحياة..

لكن ماذا إن فُقد الماضي!! هل يسـتطيع الانسـان بناء حاضره دون معرفة ماضيه؟

هل سيكون مستقبله مستقراً؟

شـــاب لا يعرف اســـمه، لا يعرف ســـنه، لا يعرف عائلته، لا يعرف ماضيه، أفاق ليجد نفسه في مكان غريب، مكان لم يراه من قبل.

تقدم بخطوات ثابتة ليعرف من الذي أحضرـــه هنا، فخرج من باب الغرفة ليجد شـــخصـــاً لم يراه من قبل، تقدم تجاهه متعجباً، كان ينظر له نظرات مليئة بالتســاؤلات، وقف لبرهة من الوقت ثم نطق بخوف شديد يسيطر على ملامح وجهه:

_إذا سمحت، من أحضرني إلى هنا؟

سيطر الحزن على الشخص الأخر فنطق بوجه قلق:

أنا أخوك كريم، ألا تتذكرني!! كيف هذا؟ أخبرنا الطبيب بفقدانك للذاكرة لكن لم اصدق ذلك، كيف للشخص أن ينسى ماضيه؟ كيف للشخص أن ينسى أخاه وعائلته؟

شـعر بشيـء من الغموض وعدم الفهم، فقام بتحريك رأسـه ونطق قائلاً:

_أنا لا أستطيع فهمك، كيف لك أن تكون أخي وأنا لا أتذكرك!!

تقدم كريم بخطوتين حتى أصبح في مستوى أخاه ووضع يديه على كتفه قائلاً:

_لقد أُصِـبت في حادث ولكن حمداً لله على سـلامتك، وبعد ذلك أخبرنا الطبيب بفقدانك للذاكرة.

تحدث بصوت ضعيف خائف:

_أنا لا أتذكر اسمي حتى!

ابتسم كريم قائلاً:

_أنت أخي صابر.

حاول تذكر شيء لكنه عجز تماماً عن ذلك فنطق متسائلاً:

_هل تعنى أن اسمي هو صابر؟

تحدث كريم مسرعاً:

- صابر طارق الرفاعي.

ابتسم صابر ابتسامة خفيفة وتحدث بعدها قائلاً:

_أخبرني بالمزيد، أريد أن أعرف الكثير عن نفسيـ وعن عائلتي وعن الماضي الخاص بي.

ابتســـم كريم وســـحب صـــابر من يده وجلســـا معاً وتوجه كريم بالحديث الى اخيه قائلاً:

_انـت صـــابر طـارق الرفـاعي، ثلاثون عـامـا، متزوج من ريم حـب طفولتك، تمتلك طفلة جميلة، نحن نعيش هنا في هذا القصر.ـــ مع والدتنا بعد وفاه والدنا.

شعر بالغربة رغم ما سمعه من أخاه فنطق متسائلا:

_أين والدتي، أريد رؤيتها.

ابتسم كريم:

_توقعت أن تسأل عن زوجتك وابنتك.

شـعر صابر بشيء من الغموض والخوف وعدم التصـديق، شـعر أنه اقترب من فقدان عقله، كيف له أن ينسى عائلته!!

شعر كريم بحيرة صابر وقلقه فحاول أن يخفف عنه قائلاً:

_هيا بنا لنرى والدتنا، إنها تنتظرك بشدة.

لم ينطق وتحرك مع أخاه دون اعتراض، كان يمســـك بثيابه بخوف شـــديد كالطفل الصـــغير، كأنه تائه في كون غير كونه، وصـــلاإإلى والدتهم التي وقفت مسرعة وضمت ولدها بشوق وحنين:

_ولدى صابر، حمداً لله على سلامتك يا بني، ظننت أنني فقدتك!

تحدث صابر بشيء من الخوف والقلق:

_أنا لا أتذكرك.

اختفت ابتسامة والدته وظهر عليها الحزن الشديد، ولكنها تحدثت بحنين قائلة:

_يكفي أنني أتذكرك وأنك بجواري.

دخلت في هذه اللحظة زوجته ومعها طفلته التي هرولت مسرعة إلى أبيها في سعادة بالغة:

_أبي أبي، افتقدتك كثيرا.

انخفض صابر إلى مستوى طفلته بقلق، إنه لا يتذكرها، لا يحمل أي مشاعر تجاهها، لا يعرفها، تحدثت ابنته قائلة:

_أبى!! لما تنظر لي هكذا؟ ولما لا تتكلم؟

تداركت زوجته الموقف وتحدثت قائلة:

_أباك مرهق قليلا الأن، سيُشفى قريباً.

اعتدل صابر ونظر الى زوجته بتعجب وهو يحاول تفسير موقفه من ذلك، إنه لا يعرف أحداً في هذا المنزل، يشعر بالغربة وسط أشخاص يخبرونه أنهم عائلته، لا يتذكر أي شيء عن الماضي كي يتابع حاضره. كان كل شيء مبهماً بالنسبة له. شعر صابر بأنه سيفقد عقله، أمسك رأسه بتألم وظل يصرخ بشدة فتوجه أخاه مسرعاً إليه لينقله إلى سريره، تحدث كريم بصوتٍ عالٍ قائلا:

_أحضري لي الهاتف يا أمي، يجب أن أبلغ الطبيب بذلك، وانت يا ريم أحضري لي المهدئ الذي أعطاه لنا الطبيب.

أمسكه كريم بإحكام ونقله إلى غرفته وأعطاه المهدئ، صمت صابر ونام وسط قلق الجميع عليه ...

تحدثت ابنته بخوف قائلة:

_أمي!! ما الذي أصاب أبي؟

ربتت الأم على كتف ابنتها قائلة:

_أباكِ سيصبح بخير، هدئي من روعك، سيكون بخير قريباً.

مر الوقت وحضر الطبيب الذي فحص صابر ثم توجه بالحديث إلى كريم قائلاً:

_إنه بصحة جيدة، ما حدث له كانت صدمة شديدة بسبب ما تعرض له من ضغط، لقد أخبرتك بأن تتمهل ولا تخبره بكل شيء دفعة واحدة، هذا خطأ وهذا ما سبب له تلك الصدمة.

شعر كريم بالحزن الشديد وتحدث بأسى:

_لم أكن أقصد ذلك، أنا فقط كنت أريده أن يتذكر عائلته.

ربت الطبيب على كتف كريم قائلاً:

_هذا ليس بالشيء الهين له، من الصعب استيعاب كل هذا، أخبره ولكن ليس دفعةً واحدة.

صمت كريم قليلاً ثم عاود النظر للطبيب متسائلاً:

_كيف يستطيع أن يُكمل حياته دون أن يتذكر شيء؟

تحدث الطبيب بابتسامة هادئة:

_هذا كله عائد لدرجة تقبله لهذا الموقف، سيضطر لبناء ذكريات جديدة، سيضطر لصنع ماضيه مع حاضره، وإن استطاع فعل ذلك سيعيش مستقبله متقبلاً كل هذا.

شكره كريم وعاد مرة أخرى إلى غرفة صابر بعد رحيل الطبيب ليجد والدته وزوجة أخيه يجلسان بالقرب منه.

توجه بالحديث إلى والدته:

- اذهبي واستريحي يا أمي ريم ستبقى معه حتى الغد.

تعجبت الأم من حديث ولدها فقالت متعجبة:

- ما الساعة الان؟

نظر كريم إلى ساعته ثم عاود النظر إلى والدته وأجابها:

_لقد تجاوزت العاشرة والنصف.

قامت الأم ونظرت إلى ولدها النائم بحزن شديد ثم توجهت بالحديث إلى ريم:

_ابقي بجواره يا ابنتي وإن حدث شيء أبلغيني على الفور؟

حركت ريم رأسها بالموافقة:

_ارتاحي أنت يا أمي، سأعتنى به وسأبقى بجواره.

ابتسمت الأم وذهبت إلى غرفتها، وغادر كريم إلى غرفته، خلد الجميع للنوم ومضت تلك الليلة، حتى أشرقت شمس يومٍ جديد وفاق صابر مبكرًا حيث كان الجميع نائماً، تفاجئ بوجود ريم بجواره نائمة، ظل ينظر لها لبعض الوقت كي يتعرف عليها أكثر، ثم عاود

النظر إلى الغرفة بتعجب، وتذكر ليلة أمس ولكن ما أزعجه هو أنه يتذكر الليلة الماضية ولا يستطيع أن يتذكر ما قبل ذلك.

فتحت ريم عينها لتجد صابر يجلس بجوارها فابتسمت واعتدلت، أنتبه لها صابر ونظر في عينيها وشعر للمرة الأولى بأنه يعرف تلك الاعين، شعر بالأمان بمجرد النظر إليها، تحدثت ريم بتساؤل:

_أرى الكثير في عينيك؟

أجابها بتردد:

_على الرغم من أنني لا أتذكر شيئا إلا أنني أشعر بأني نظرت إلى عينك من قبل.

شعرت ريم بسعادة بالغة لما سمعته من صابر:

حبنا كان منذ الطفولة، وكنا ننتظر الوقت يمضي حتى نتزوج وكان ذلك أسعد يوم في حياتنا.

ابتسم صابر ثم تحدث قائلاً:

_يبدو أن هذه ذكريات سعيدة، ليتني أتذكر ذلك.

مسكت ريم يده وربتت عليها برفق قائلة:

_نستطيع بناء ذكريات جديدة معاً، نستطيع بناء حياة جديدة، الأمر كله في يدك أنت.

صمت صابر لبعض الوقت ثم نظر اليها وتحدث متسائلاً:

_هل تعتقدين أنني أستطيع أن أكمل حياتي وأنا لا أتذكر شيئا عن عائلتي.

ابتسمت وقالت:

_لم لا تســتطيع ذلك، ليس من البداية لكنك ســتعتاد على الأمر، الأمر يحتاج منك اهتماما فقط.

نظر صابر إلى سقف الحجرة ليفكر، ثم عاود النظر إلى زوجته:

_هل تعتقدين أن الأمر بهذه البساطة؟

جاوبت ريم مسرعة بالنفي:

_بالطبع لا، هذا أمر صعب بالنسبة لك ولنا أيضاً، لكنك دائماً كنت تواجه الصعوبات وتنتصر مهما كانت.

تنهد صابر قائلاً:

_لو أنني كما تقولين أواجه الصـعوبات وأقوم بالانتصـار عليها، فهذا لأنها كانت صغيرة، ليست كهذه المِحنة.

ابتسمت قائلة:

جميع الصعوبات التي واجهناها كنا نجدها في البداية كبيرة ولا يمكن التغلب عليها لكننا واجهناها بصبرنا وتحملنا وبقوة عزيمتنا.

شـعر صـابر بارتياح شـديد بالحديث إلى زوجته التي تقف سـنداً له، أبتسم واتجه إليها بالحديث قائلاً:

_أتعتقدين حقا أنه يمكنني الخروج من هذه المحنة!!

ابتسمت زوجته ومسكت يده بحب شديد نابع من قلبها:

_نعم، ولكن ليس اعتقاد ولكن ثقة بأن الله معنا وستصبح أفضل بكثير مما مضى، لتبني ذكريات جديدة ولكن ذكريات جيدة تتذكرها دائما.

حرك صابر رأسه بابتسامة أمل:

_سأحاول، شكراً لك، الأن عرفت لما أحببتك في الماضي.

ربتت ريم على يده قائلة:

_لا تشكر زوجتك وحبيبتك فأنا دائماً أقف بجوارك مهما كانت تلك الصعوبات والتحديات.

أمسك صابر بيد زوجته بإحكام وضمها إليه في حب ثم نطق مازحاً:

_هل أستطيع أن أعد الفطور!!

ضحكت ريم من بين دموعها وشعرت بسعادة بالغة لأنه يتصرف كما كان يتصرف في الماضي حيث كان يحب تحضير الفطور، ولكنها اكتفت بالابتسامة ولم تبلغه أنه كان هكذا في الماضي لأنها تريد أن يبني ذكريات جديدة وليست ذكريات على أساس ماضٍ لا يتذكره، تحدثت إليه بحب:

_نعم تستطيع.

قام صابر بارتياح شديد وبحث عن المطبخ وبالفعل وجده وظل يعد الفطور بسعادة بالغة، حتى دخلت ابنته لتجده هكذا فانطلقت بسعادة إليه:

_أبى!! لقد تحسنت!

ابتسم صابر وضمها إليه:

_نعم لقد تحسنت يا ابنتي، هل تودين إعداد الفطور معي؟

نطقت ابنته بسعادة:

_بالطبع أود ذلك.

اعتدل صابر وأشار إلى ابنته:

_هيا أحضري لي البيض، ولكن لتأخذي حذرك حتى لا ينكسر منكِ.

هتفت ابنته:

_أبي!! دائماً ما تقول لي هذا، لا تقلق أنا لست صغيرة.

ابتسم صابر:

_بالطبع لستِ صغيرة.

اندمج صـــابر وابنته في تحضـــير الفطور، دلفت والدته إلى المطبخ بصحبة كريم وزوجة صابر لتتفاجأ بما يفعله ابنها.

نطق كريم بسعادة بالغة:

_أخي!! هل عادت لك الذاكرة؟

حرك صابر رأسه بالنفي قائلاً:

_لا يا أخي، ولكنني أبني ذكريات جديدة، أتعايش مع الوضع.

اتجهت الأم إلى ابنها وضـمته إليها بحب بالغ ونابع من قلبها، ربتت على كتفه قائلة:

_هل ستستطيع فعل ذلك!!

ابتسم صابر وأمسك بيد والدته وربت على يديها بحب:

_سأحاول يا أمي، سأحاول.
شعر الجميع بالسعادة وهتف صابر:
_هيا لنتناول الفطور، لنرى هل أستطيع إعداد الطعام الجيد أم لا.
ضحك الجميع وتحدث كريم قائلاً:
بالطبع تستطيع يا أخي فدائماً ما كنت تستطيع ذلك.
ابتسم صابر قائلا:
_سنرى، هيا بنا.....
اجتمع الجميع ليتناولوا الفطور وســـط أجواء أسرية جميلة، وهنا شعر صابر بالطمأنينة وقرر بناء ماضيه مع حاضره حتى يستطيع أن يعش مستقبله...

تمت بحمد الله